أهمية المخيال في فكر محمد أركون

الأستاذة/ مريم قسول(*)

يـعد محمد أركون صاحب مشروع فكري ضخم فهو مفكر طليعي في مجال علم الإسلام ودراساته، من حيث أنّه يستخدم كل معـارف ومناهج علوم الإجتماع والدراسات الإنسانية ويوظفها في تحليل ونقد الفكر الإسـلامي، فقد وظف البنيويـة والأنتربولوجيا ومناهج تحليل الخطاب أو مايعد البنيوية في تشكيل نظرته الخاصة للإسلام والعقل الإسلامي.

وهـو من المفكرين القلائل في العالمين العربي والإسـلامي الذين يملكون مشروعا فكريا حقيقيا يتجاوز إطار الجامعة والدراسـات الأكاديمية ليصب في هـم التحديث والتنوير الذّي طالما شغل رواد النهضة العرب به منذ نهاية القرن التاسع عشر.

وينتمـي أركون من الناحيـة المعرفية إلى جيل فرنسي عالي المسـتوى في ثقافته وإ[داعاته ومناهجه وفلسفاته، فقد استفاد حتماً من تجارب ومنجزات كل من «ميشيل فوكو» و«فرنسوا فوريه» و«بيير بورديو» وغيرهم، من الذّين أحدثوا ثورة منهاجية وابسـتيمولوجية في الفكر الحديث فأراد أن ينحو مثلهم في دراسته وكتاباته ولكن عن الفكر الإسلامي.

لقـد بدأ أركون بحوثه حول التراث الإسـلامي مبكراً في حياتـه العلمية، فقد أدرك من البداية أن الدراسات حول الإسلام ماتزال قاصرة عن بلوغ المستوى العلمي الضروري لفهم التراث وتجاز معيقاته، فالقراءة الإيمائية التي أنجزها الفقهاء ومن سار على منهجهم سجنت نفسـها في قفص الدوغمائية وتحولت مع مر الزمن إلى مسـلمات لبسـت رداء النص المقدس، أما الإسـلاميات الكلاسيكية والتي تشير إلى ما أنجزه المستشرقون فإنها على الرغم مما حوته مـن إيجابيـات والتي تمثلت بالخصـوص في بعثها من تحت الأنقاض وركام السـنين كبريات النصوص العربية الكلاسيكية، غير أن أدوات البحث التي اعتمدتها والتي تركزت بالأساس

(*) قسم الفلسفة، الجزائر أستاذة بجامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.

على المنهجية الفيلولوجية هي التي حددت سقف ومحدودية الدقة والعمق فيما توصلت إليه من نتائج، فالبحث العلمي في التراث الإسلامي بالنسبة لأركون يحتاج إلى أكثر من منهج، لم يكن أركون يهتم بالمحاكمة الإتهامية والنقد الإيديولوجي لبحوث المستشرقين بقدر اهتمامه بمناهج البحث المعتمدة لديهم، فقد كان نقده الاستشراق نقدا أبستيمولوجيا لا أيديولوجيا[١].

وقد كرس محمد أركون مجهوده الفكري عبر حياته العلمية في التأسيس لقراءة جديدة للتراث الإسلامي، والتي أطلق عليها اسم الإسلاميات التطبيقية.

وما يهمنا هنا من مشروع محمد أركون الفكري هو المخيال حيث يهدف أركون في دراسته للمخيال إلى تقديم تفسير وتحليل وفهم للآلية الوظائفية التي يتمتع بها هذا المصطلح في قدرته على تحريك العواطف وتجييشها في المنعطفات التاريخية الكبرى التي تعرفها المجتمعات الإسلامية.[٢]

وفي إطار تحليله لمكونات ووظائف المخيال نجد أركون يركز على العناصر التالية[٣]:

- الكشف عن الأسس التي تشترك فيها الأصولية في كل مجتمعات الكتاب اليهودية والمسيحية والإسلامية، وذلك من خلال تقصي الأصول الثقافية والنفسية واللغوية التي ترتكز عليها هذه الأصوليات.
- التركيز بشكل خاص على الأصول التي تقدم عناصر خصبة لتغذية المخيال الإسلامي، ويمكن أن نقسم تلك الأصول أو المحددات إلى مصدرين أساسيين:

أولا: الظاهرة القرآنية أو ما يسمى بالوحي، بالإضافة إلى الخطاب النبوي أو اللحظة النبوية.

ثانيا: الوقائع التاريخية والأشخاص والرموز التي تشغل مكانة هامة في الذاكرة الجماعية للمسلمين.

---

(١) عمر بوسماحة. قراءات في مشروع محمد أركون، أعمال ندوة. مخبر الدراسات الفلسفية والأكسيولوجية. جامعة الجزائر ٢. ٢٠٠١ ص ٣.

(٢) محمد الشبة. مفهوم المخيال عند محمد أركون، منشورات الاختلاف. الجزائر ٢٠١٤. ص ٧.

(٣) المرجع نفسه .ص ٠٧ /٠٨.

إنّ الحديث عن أهمية البعد المخيالي في دراسة أركون الفكر الإسلامي، وتتمثل هذه الأهمية أساسا في الكشف عن الدور الذي يلعبه المخيال في تحريك عجلة التاريخ، وفي تشكيل الذاكرة الجماعية ومن أجل الخوض في هذه الأهمية للبعد المخيالي في فكر محمد أركون بنا أن نقوم بتقسيم هذا العمل الذي نعتزم الخوض فيه إلى جملة من النقاط المنطقية التالية:

من أجل العثور على معاني المخيال في الثقافة العربية الكلاسيكية نطالع بسرعة المعاني اللغوية لجذر «خيل» في معجم لسان العرب الجذر اللغوي للكلمة المستحدثة «المخيال» يفيد في لسان العرب المعاني التالية[١]:

معنى الظن: «خال الشيء يخال خيلا، وخيلة وخالا وخيلا وخيلانا ومخالة ومخيلة وخيلولة: ظنه، وفي المثل: من يسمع يخل أن يظن».

وكذلك في الحديث: «ما أخالك سرقت، أي ما أظنك».

وقال ابن هانئ في قولهم من يسمع يخل: «يقال ذلك عند تحقيق الظن، ويخل مشتقة من تخيل إليّ».

معنى التهمة: «وخيل عليه تخييلا: وجه التهمة إليه».

معنى الخليق: «وكل شيء كان خليقا فهو مخيل، يقال: إن فلانا لمخيل للخير».

معنى الخادع أو الموهم: «وقيل: الخال السحاب الذي إذا رأيته حسبته ماطرا ولا مطر فيه». وقال الأصمعي: «كانوا ينصبون خشبا عليها ثياب سود تكون علامات لمن يراها... وأصلها أنها كانت تنصب للطير والبهائم على المزروعات لتظنه إنسانا ولا تسقط فيه».

وهناك دلالات واستعمالات أخرى للجذر اللغوي للكلمة المستحدثة «المخيال» في معجم لسان العرب، ويشير أغلبها إلى ما في خيل وفي أصلها ومشتقاتها من دلالات على الظن والوهن والتوقع والكذب والصور الكاذبة أو غير الحقيقية وما يقترن بها من عدم اليقين... أي بكل ما ليس حقيقة صادقة تملك اليقين أو واقعا حقيقيا».[٢]

---

(١) ابن منظور. لسان العرب، دار الكتب العلمية، الطبعة الاولى، بيروت، ٢٠٠٥ ص ٣٢٧.

(٢) المرجع نفسه. ص ١٤.

المخيال عند العرب

يعتبر أفلاطون وأريسطو هم الأوائل اللذين تطرقوا إلى المخيال عبر عنه أرسطو بكلمة Phantasma.

ويعرف أفلاطون التخيل بأنه مصور أو رسام يرسم في النفس أشباه الأشياء المدركة بالحس، ويأخذ من الحواس التي تصبح مادة للتفكير، وفي هذا التعريف يشير أفلاطون إلى وظيفتين هامتين للتخيل إحداهما هي استعادة صور المحسوسات، وهذا ما يعنيه أفلاطون بتصوير الأشياء المحسوسة في النفس والثانية هي استخدام الصور المحسوسة في التفكير[١].

لقد عبر الفلاسفة العرب، كابن سينا، وابن رشد والفرابي،...عن المخيال ب فانتاسيا الذي أخذوه من Phantasana لأريسطو، يقول ابن رشد في شرحه للمخيال عند أرسطو محال أن يكون الخيال «المخيال» ظنا أو حسا أو علما أو عقلا، وعموما، أيا كانت من ملكات العقلانية، فهو ليس متركبا من الظن والحس، كما يقول بعض القدماء... فجلي أن الخيال ليس ظنا مقترنا بحس ولا بملكة مركبة من الظن والحس، إذن الخيال ليس إحدى تلك القوى ولا مركبا منها[٢].

المخيال عند بول سارتر

هو قدرة خلاقة، أي أنه حرية يستطيع بواسطتها أن يشكل العالم بطريقته الخاصة، ذلك أن الخيال هو الوعي بأسره من حيث هو قادر على تحقيق حريته، أي قادر على تشكيل الواقع وفرض دعائمه على بناء العالم الخارجي، فالوعي المتخيل بالنسبة لسارتر يطرح موضوعه كما لو كان عدما، وهذا ما يجعل المخيال في العمق رمزا لكل فكرة إنه نموذج أصلي ومثالي للعدمية[٣].

المخيال عند باشلار

لقد أعاد باشلار للخيال المتخيل، الذي يسبق الإدراك فلا يكتفي بالمعطي كيفما كان

(١) محمد عثمان نجاتي. الإدراك الحسي عند إبن سينا، بحث في علم النفس عند العرب، دار الشروق، الطبعة الثالثة، بيروت. ١٩٨٠. ص ١٥٣.

(٢) ابن رشد. الكتاب الكبير للنفس لأرسطو، ترجمة ابراهيم الغربي، دار الحكمة ١٩٩٧. ص ٢١٨/٢٢١.

(٣) مصطفى النشار. نظرية المعرفة عند أرسطو، الطبعة الثانية، دار المعارف القاهرة. ١٩٨٧. ص١٩٧.

شـكله، بل يعمل على تحويره، فالمخيلة أكثر عمقا من الذاكرة إذ في حريتها المتوحشة يتجسد جوهـر الفكـر، وقد وضع غاسـتون باشـلار مفهومه العـام للرمزانيـة المخياليـة في بداهتين اثنتين[١].

- الخيال هو ديناميكية أو فاعلية منظمة.
- هذه الديناميكية المنظمة هي عامل أساسي في التجانس الحاصل في التمثل.

ويرى باشـلار أن المخيال هو الذي يمكن الخيال مـن أن يكون منفتحا وجموحا إلى أقصى الحدود، كما يمكنه من الوصول إلى تجربة الانفتاح والجدة المرتبطة بالأعماق السحيقة للكائن الإنساني وأية صورة تتخلى عن المخيال كمبدأ لها تصبح متمركزة في شكل نهائي، ومتخذة شكل إدراك آن، ومن ثمة تصبح الصورة مكتملة وساكنة، الشيء الذي يجعلها تجرد الخيال من أجنحته وتحد من قدرته التخيلية.[٢]

وعلى العموم يحدد الفلاسفة الخيال أو المتخيل كما يلي[٣]:

- إنه ملكة استحضار صور شيء ما كنا قد رأيناه سابقا.
- أنه ملكة خلق صور لأشـياء غير واقعية، أو لم تر أبدا في السـابق، أو ملكة تركيب صور معروفة سابقا ولكن بطريقة جديدة.
- أنـه الملكة التي تمكننا من بلـورة المفاهيم والتصورات والنظريـات الجديدة و إيجاد تجارب عملية في كل مناسبة.
- إنه عبارة عن العقائد الخاطئة التي تتصورها الروح وتجسـدها في المتخيل خارج كل رقابة أو سيطرة للعقل.

المخيال عند محمد أركون

لقد أدى اهتمام أركون بالبعد الأسطوري والمجازي إلى تدعيم المفاهيمية في مقاربة النص

(١) محمد عثمان نجاتي. مرجع سبق ذكره. ص ١٩٦.
(٢) محمد الشبة. مرجع سبق ذكره، ص ١٥/١٦.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٦/١٧.

الإسلامي بمفهوم المخيال، الذي تمت بلورته في الأبحاث الأنثروبولوجية وعلم التاريخ الحديث، فهذا المصطلح يحتل أهمية مركزية في فكر أركون الذي يستخدمه كرد فعل على التطرق المادي أو الماركسي في دراسة التاريخ، فليس العامل المادي وحده هو الذي يحسم حركة التاريخ، بل إن العامل الرمزي يلعب دوره أيضا في هذه الحركة، وبخاصة في المجتمعات القروسطية حيث كان اقتصاد الكفاف هو السائد، وعموما في كل المجتمعات الزراعية ما قبل الصناعية[١].

وفي هذا السياق يرى أركون أن علم الأنثروبولوجيا المعاصر يتيح لنا أن نتحدث عن وجود معرفة ذات نمط أسطوري، وهو ما لا يفهمه أو يقبله أناس العصور الوسطى، فالفكر الإسلامي لا يزال في نظره بعيدا عن مفهوم الأسطورة، بحسب المعنى الأنثروبولوجي الحديث، فهو يفهمها بمعناها القديم المكرس في اللغة العربية معنى الخرافات والأباطيل.[٢]

وقد رفضت النزعة الوضعية في القرن التاسع عشر الاعتراف بالبعد الخيالي والأسطوري للإنسان، ولذلك اعتبرت الدين والبعد الديني شيئا متجاوزا ينتمي إلى العالم القديم، أمّا العلم المعاصر فهو يعيد الاعتبار إلى الأسطورة ويعتبرها إحدى الطرق لإنتاج المعرفة، فالأساطير المنتشرة عند شعب من الشعوب تكشف إلى حد كبير عن العادات والتقاليد والأخلاقيات السائدة في، بهذا المعنى فالأسطورة ظاهرة أنثروبولوجية تشترك فيها جميع الثقافات والشعوب. وفي هذا السياق يرى محمد أركون أن الأسطورة تحرك التاريخ مثلما تحركه الوعود المحسوسة والماديات وربما أكثر، هنا يكمن نقص الماركسية الرهيب، فهي تقف على رجل واحدة لا رجلين وهنا يتفوق ماكس فيبر على كارل ماركس[٣]. يتبنى محمد أركون المخيال بغية تجاوز النظرة المادية الماركسية في دراسة التاريخ هذا من جهة ومن جهة ثانية تجاوز النظرة التقزيمية للخيال وعناصره اللامعقولة، ورفض تبجيل العقلانية «فالعقل لا يمارس دوره إلا بعلاقة مع الخيال والمتخيل»[٤].

أي أن العقل يحمل في طيه لا معقولة، فلا يوجد وعي لا يتدخل فيه الخيال، وبالنسبة

(١) المرجع نفسه، ص ١٨/١٧.

(٢) مصطفى كيحل. الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، منشورات الاختلاف، الجزائر ٢٠١٣، ص ١٤٤/١٤٣.

(٣) محمد الشبة المرجع نفسه، ص٢٨ /٢٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٩.

لمحمد أركون الإلحاح على استخدام العقل والاستعانة به، غيب الحديث عن مفهوم الخيال بصفته ملكة أو وسيلة للتصور والمعرفة مرتبطة بالعقل في كل العمليات التي يخوضها من أجل الإدراك والتعبير والكشف المعرفي[١].

ويرى أركون أن المسلمين والمستشرقين معا قدموا تصورا خاصا عن الفكر الإسلامي مغموسا بشكل كلي بمفهوم العقل والعقلانية، وراحوا يرمون الخيال والمتخيل في دائرة الخطأ والوهم والخرافة والإنحراف، وراحوا يعتقدون أن عمليات الانبهار والزخرفة والمجاز الخلاب هي أشياء مقصورة على الأدب بالمعنى الفني للكلمة (شعر، حكايات، روايات) ولكنها معدومة تماما في ساحة الفكر[٢].

ويذهب أركون إلى تقرير نوع من التقابل بين الموقف العقلاني للعالم والموقف المخيالي، ويرى «أن المخيال هو عبارة عن بنية أنثروبولوجية موجودة لدى كل الأشخاص وفي كل المجتمعات مهما اختلفت أشكاله وأنواعه بحسب التاريخية والمشروطية المكانية»[٣].

وفي هذا الصدد نجد محمد أركون يعتبر أن العقل هو ملكة من جملة ملكات أخرى يستخدمها الفكر»[٤]. ولذلك فهو يفضل استخدام كلمة فكر على كلمة عقل، ومن هنا يأتي حديثه عن الفكر الإسلامي أو تاريخ الفكر الإسلامي، فكلمة «فكر» هي أوسع مجال. ذلك أنها تشمل ثلاثة عناصر رئيسية[٥]:

١. العقل بالمعنى الصارم للكلمة، أي المعنى الذي أعطى له الامتياز والحضوة خلال تاريخ الفكر البشري لاسيما في الفلسفة والعلوم.

٢. الخيال.

٣. الذاكرة.

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٠.

(٢) محمد أركون. العلمنة والدين، الاسلام المسيحية، الغرب، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٩٦ ص ٢٦.

(٣) مصطفى كيحل، مرجع سابق، ص ١٤٥.

(٤) محمد الشبة، مرجع سابق، ص ٦٢.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٤٥.

إن محمد أركون يميز في المتخيل بين:

١- المخيال الاجتماعي والاديولوجيا:

المخيال الاجتماعي هو مصطلح مقترح من طرف محمد أركون، حيث يرى أن المخيال الاجتماعي يفرض ثقافته هذه على المجتمع، حيث يرجع أهمالنا اللغة الشفاهية لأننا لم نعتن بالعلم الذي يدرس الذاكرة الشفاهية وهي الأثنوغرافيا التي تعتن بالوصف الدقيق لجميع مظاهر الحياة اليومية للجماعة.

كما يميز أركون بين الحقيقة التي يريد أن يوصلها الفكر العلمي وبين الحقيقة النفسية الاجتماعية التي تروج لها الحركات الجماهيرية عن طريق التجيش والتعبئة[١].

يقول اركون «الدين يهيمن بالفعل ولكنه لا يحكم في أي مكان» وبالرغم من هذا فالمخيال الإسلامي يرفض أن تكون الحكومة مستقلة عن إرادة الله أو الوحي، ويلاحظ اركون أن مثل هذا المخيال شيء ضروري في سيرورة المجتمع وميكانيزمات اشتغال السلطة فيه فلا يوجد أي مجتمع بشري يمارس دوره أو آليته بشكل مختلف، أي بدون تشكيل متخيل ما[٢].

٢- المخيال والتاريخي في الوعي الإسلامي:

إن سيطرة المخيال الديني على أفراد الأمة يجعل كل عضو من أعضائها يقفز على الأحداث التاريخية، ليغيش وبشكل مباشر وأسطوري مع كل السابقين واللاحقين المعتبرين كرموز وشخصيات مؤسسة لمعنويات الأمة وقيمها الخالدة. من هنا يتحدث أركون عما يسميه بالدينامو الروحي الذي يحرك آمال الجماعة المؤمنة، ويملأ عليها كل شعورها وإحساسها، كما يقدم لها غاية أنطولوجية وأخروية تخلع صبغة التقديس والتعالي علفى كل الأعمال التاريخية المنجزة من خلال ملابسات الصراع الأرضي. في هذا السياق يقول هاشم صالح: «لا يستطيع عقل المؤمن التقليدي أن يستوعب تاريخية الأحداث التأسيسية والشخصيات الكبرى المندمجة، لأنها تملأ عليه أقطار وعيه ويشعر نحوها برغبة التقديس، وبالتالي فلا يستطيع أن يفهم أنها مشروطة بالتارخ أو بلحظات التاريخ. وهذا هو معنى المخيال أيضا»[٣].

---

(١) محمد الشبة، مرجع سابق، ص ٦٢.

(٢) نفس المرجع، ص ٦٣.

(٣) نفس المرجع، ص ٦٤/٦٥.

٣- المخيال والعقل في الثقافة الإسلامية:

يلاحظ أركون أنه غالبا ما تعرض المخيال للاحتقار لصالح تضخي ملحوظ لدور العقل في تاريخ الثقافة الإسلامية. وقد حصل ذلك بالأساس، نتيجة التضامن الحاصل بين الثقافة الحضرية العالمة من جهة، ومن الدول المركزية المرتبطة بالكتابة والخط الارثوذكسي المهيمن من جهة أخرى. بل حتى المضامين الخرافية والقصص الشعبية التي اهتم بها الكتاب القدامى كثيرا وجمعوها في كتب التأريخ والتفسير والسيرة والتراجم، كان العقل الفيلولوجي والتاريخاني قد كشف مواقها بدقة وحذفها.

لذلك يؤكد أركون في مشروعه لنقد العقل الإسلامي على ضرورة القيام بدراسات حرة ولا مشروطة للآداب الشعبية. عل ضوء المعطيات الجديدة التي تمدنا بها الألسنيات والإيثنولوجيا وعلم الاجتماع والتارخ... من أجل إعادة الاعتبار للعقل الشفهي الذي طالما همش من طرف العقل الكتابي ومن أجل التوصل كذلك إلى تفهم الدور الذي تلعبه التركيبات الأسطورية والخرافات والشعوذات والسحر... إلخ، في تكوين الذات التاريخية للجماعة البشرية.[١]

ومن هنا يرى أركون بأن نسبة العقل أو مقدار تواجده في الكثير من القطاعات والمنتجات الثقافية في الحقل الإسلامي، يحتاج إلى إعادة رؤيته وتقييمه انطلاقا من انثروبولوجيا المخيال وعلم الاجتماع المهتم بالعلاقات المتداخلة بين العوامل الأسطورية والشعائرية والتاريخية.[٢]

---

(١) نفس المرجع، ص ٥٥.

(٢) نفس المرجع، ص ٥٦.